(٥)

الإنسان العابد للإنسان المعبود
لإنسان الحقيقة بإنسان الشهود
أمر الله لأمر الله في ناموس الوجود
الأمر الوسط لأمرين للدنو وللصعود

حديث الجمعة

٢ رجب ١٣٨٤ هـ - ٦ نوفمبر ١٩٦٤ م

إن الدين لواقع.. إنه واقع لا إله إلا الله.. وكتابه الله أكبر.. وعَلَمَه رسول الله.. وآدمه محمد الله.. وإنسانه اسم الله.. وطريقه حق الله.. وإمامه كلمة الله.. وجنته روح الله..

جاء رسول الله للناس من الإنس والملك والجان بالبشرى فكانوا بشرا، كما جاءهم بالإنذار من إبلاسهم بشياطين قوالبهم، وكشف عن العلم بالوجود معلوم الإنسان أو الكائن عن نفسه، يوم يعلم أنه في الله، لا غائبا عنه، ولا محيطا به، ولا متعددا معه. هو في قيام به، قياما حقيا بأمره، وعبدا لأعلى من رفيق، وربا راعيا لأدنى من صديق.

إذا كان كذلك، فما يكون موضع المناسك في دين الفطرة، ودين الواقع؟ ما يكون القيام والقعود؟ ما يكون الركوع والسجود؟ هل العبادة في القيام والقعود؟ أو الركوع والسجود؟ أم العبادة في القيام بالمعبود، في وحدانية العبد، مع المثل المنشود، الذي يمثل الأعلى، وهو الحق المعبود، لا سجود ولا قعود، ولكنه الواقع المشهود؟

فهل يقوم أمر الدين، بوثن يسجد لوثن، أو عفن يسجد لعفن، أو حيوان يسجد لحيوان؟ أين هو معنى الإنسان للإنسان؟ إن الأعلى في خدمة الأدنى في دوام، ما كان هناك دين وديان.. وما كان الأدنى في خدمة الأعلى إلا إذا كان هناك ملك للشيطان بسلطان من طغيان، فتحكم الأعلى في الأدنى

بالبهتان، استمتاعا بالسلطان، وإذلالا لأهل الكفران، وقد فقدوا عن الحق معنى الاسم ومعنى العنوان، واهميه في مريد من شيطان.

يتلاقى هيكل الإنسان مع هيكل للإنسان، للتواصي بالحق للحرص على معنى الإنسان لهما، وكسب معنى الإنسان لاجتماعهما في وحدتهما. ولكن شبيه الإنسان بالجسمان يرفض إلا أن يكون حيوانا يتابع حيوانا، وشيطانا يعبد شيطانا، إيمانا وهميا بالأوزار من الأبدان، بعيدا عن القلوب بالحياة وبالإحسان.

إن من يسجد بجسمانه لجسمان، واهما أنه يستقبل وجها للرحمن، ظانا أنه يعرف الله، فهو ما عبد الله، وما عرف الله، ولكنه تجاهل الإله، في طواياه، وفي نواياه. فإن رأيت مثلا أعلى للقلوب في كنانته من الجسد فسجدت بجسمانك لجسمانه، بوهم العبودية لوجه الله بقلبه لرحمانه، فأنت في واقع الأمر به لاحق، وأنت إن صدقت الإيمان بما هو فيه قائم، أدركت أنك بعين أمره به قائم، وسيتكشف لك يوما أنك به قائم. فأنت بفعلك لمن هو فيك وفيه مباعد.

فماذا تطلب إلى الناس في دخيلة نفسك بهذا السجود المادي منك في الحقيقة؟ وماذا ترجو من الله أن يكون لك؟ إنك تطلب إليهم بدورك أن يتابعوك على فعلك، وأن يسجدوا لك يوما أو في الحال على ما سجدت لتمثال، سجودا بتمثال. فلا تخدع نفسك بهذا باسم الإسلام والإيمان. (كم من مصلٍ لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدا)[1].

أين هي القلوب تتألف؟ أين هي القلوب تحيا وتصغي وتأتلف؟ إنها عن الله ملتفتة، إنها لكلام الله غير صاغية باسم الإصغاء، ومنحرفة وملتوية باسم الاقتداء، نافرة من الله معها باسم الإيمان وباسم الولاء. ويوم قام قائم بالله داعيا إليه، ما دعا إلى ولاء لجسمانه، بل دعا إلى الولاء لرحمانه، قائما على كل نفس بما كسبت، أقرب لكل نفس من حبل الوريد، بيته القلوب وعوالمه القوالب.

إذا كان هذا من حركات القوالب هو الإيمان! فكيف يكون الكفر! وإذا عرف هذا بمعاني الكفر، فكيف يكسب بعد ذلك الإيمان؟ وقد مسخ الإنسان على مكانته، من الطغيان، ومن الانحراف، ومن البعد عن الجادة، ومن البعد عن الحق، ومن البعد عن الله معه وعلى نفسه.

إن متابعة الطاغوت باسم اللاهوت، أمر لا ينتهي إلى الله، ولا ينتهي إلى الطاغوت. فالطاغوت لا بقاء له، إذ لا تجدد له، إنه مفني لظلاله غير مجدد لمثاله، مستأثر معتز بحاله، على ضلاله، حتى يهلك باجتثاث شجرته وانقضاء ثمرته، {فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض}[2]، {كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض فما لها من قرار}[3].

إذا كانت تعاليم الإسلام، وتعاليم الفطرة، تقول لك إن الله أقرب إليك من حبل الوريد، فكيف تسجد الله فيك لحيوان أمامك، ما رأيت فيه إلا معنى الحيوان؟ وما تكشف لك ولن يتكشف لك بمعنى الإنسان، إلا يوم يتكشف لك معنى الإنسان فيك. (المؤمن مرآة المؤمن)[٤].

إن الذين يطوفون بالبيت حاجين، ويستقبلون البيت مصلين، نُصبا لكلمات الله في بيت يذكر فيه اسمه بدين، لله مسلمين، وعلى ذكره في أنفسهم عاكفين، وعلى تطوير فطرتهم بالله عاملين لبدء الحياة لأبوابها طارقين، والطريق إليها سالكين، وفي معارجها إلى تمام بها متطورين، وقيوم قيام بمعناها له يسلمون وبإيمان به يقومون، إنما يقومون في منسك معبر على أن الإنسان رب للإنسان.. وأن الإنسان عبد للإنسان.. وأن الإنسان في خدمة الإنسان إيمانا بأيمان، أو في استهلاك وإهلاك له طغيانا بطغيان.

فإذا استقبلت البيت، فأنت تقوم في منسك، تهيئ وتُعبد نفسك فيه لطلب القائم من وراء أسوار وجدران البيت، على ما يليق أن تفعل بجوارحك اتجاها إلى من هو من وراء جدران قلبك فيك من المجهول عليك فيه وهو من تذكر في هذا البيت باسم الله، فأنت إنما تعني المعنى الحي لشاغل هذا البيت، المضفي بالحياة على عالم ذاتك، فما عرفت الله بعد، فأنت إنما تطلبه بظاهر الغيب بك، بظاهر بيت لغيب له، لمعنى قلبك، في عالم ذاتك، لمعنى وجودك، حتى تتكشف الأغطية لك يوما في دورة من دورات تواجدك الفطري.

إن الذين هم في البيت بدورهم في الفطرة، من أهل البيت يسجدون متنسكين اتجاها إلى جدران البيت، محجوبين بها عمن حوله ممن يطوفون بالبيت حاجين أو يصلون إليه مستقبلين، فيصلون ويسجدون بدورهم في منسك من وراء أسوار البيت، فهم أيضا إنما يُعبِّدون أنفسهم ويسجدون لما هو حول البيت، مما هو وراء جدران البيت، فهم يسجدون ويعبدون أنفسهم للناس، ولخدمة الناس، يوم يدركون لمناسكهم، فهم إنما يطلبون الحق بظاهر الغيب، بظاهر الخلق بظاهر الناس، (رُب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره)[٥]. {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون}[٦]، وهذه هي صلاة القلب وحجه في خدمة القالب بجوارحه، وأبعاضه، وصفاته. فهم يبدأون مناسكهم من القلب قلوبا تتسع وتتسع في خدمة الجوارح. وهذا هو دين كلمات الله وعباده في خدمة خلق الله طلبا لمرضاته وانتشارا بحقائقه وصفاته.

وما داموا فريقان أسوار البيت بينهما، فكلاهما يعبِد نفسه لمجهول عليه، لا يقين له به، ولا واقع له عنده فهو يعبِّد نفسه للغيب عليه هو ظاهر وجود له، فإذا تساقطت الجدران بينهما أو شفت عما وراءهما لهما، أو نُفخ في الصور، فتكشفت الوجوه للوجوه، وعرف الناس الناس، عرفوا الغيب من ورائهم بإحاطته هم له وجوه لوجوه، بوصف العبد لأنانيتهم وبوصف الرب لوحدتهم بغيرهم لعينهم،

فأدركوا قول الله لهم ولرسوله {وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم}[٧]، {يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما}[٨]، وأدركوا حكمة الرسول وهديه بقوله (سيد القوم خادمهم)[٩]، وقوله (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)[١٠].. وأدركوا ما في قوله {إن الله وملائكته يصلون على النبي}[١١]بوصفه الله له أمة به، على وصفه النبي لهم أمة بهم، أو أنه المصلي بهم، قائما على كل نفس، عليه معلما لهم عنهم به، وأدركوا مراد الله بقوله لرسوله، {... إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون}[١٢]، وقوله {ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا}[١٣].

وكلا الفريقين ممن في البيت وممن حول البيت ما عرفوا الله لأنفسهم بعد على ما يليق بمعرفته، لأن الله ما زال من وراء ظهورهم بإحاطته، ولم يستقبلهم لهم فيهم بمحيط طلعته لمطلقه، أحدية وجودهم لقائم وحدانيتهم في تعدد صفاتهم أسماءً له، فما شهدوا إلا بعيونهم لباطن قيامهم، وما شهدوا إلا وجوها لباطن جلود نوعهم، تقابلوا أشباحا من نور، أو أشباحا من طين، أو أشباحا من نار. فما اجتمعت قلوبهم أرواحا للأحد الواحد الصمد لعلميتهم، لأناهم بفردوس أنفسهم، قياما بمن صلوا عليه، وصلى عليهم، عبدا وربا، وقد انقلب إليهم رحمة الله، فانقلبوا إليهم انقلابا إليه، مرحومين في أنفسهم، فأدركوا قوله تعالى {هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور}[١٤]، عرفوا ذلك لهم باطن أمرهم، لظاهره في قوله {وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم}[١٥]، وقوله {يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما}[١٦]، فأدركوا حقيقة هدي الله لهم بقوله {وفي أنفسكم أفلا تبصرون}[١٧]، وقوله {... اتقوا الله وآمنوا برسوله}[١٨]، وقد أذن له أن يسفر بالحق {قل جاء الحق}[١٩].

إن الله لا يعرف إلا في اجتماع القلوب، إن الله لا يعرف إلا في وحدانية القلوب مع القلوب لقائم وقيوم أحديته، لا قوالب، لا وزر، فالكون كله لإنسان الله قالب {وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين}[٢٠]، والقلوب إذا ما تآلفت وتعارفت، اتحدت ما تعددت، فلا ساجد ولا مسجود له، ولا قاعد ولا مقعود فيه، ولا قائم ولا قيوم عليه، ولكنه الواقع، ولكنه الحياة، ولكنه شهادة أنه لا إله إلا الله، وقيام محمد رسول الله، حق الله للأنا بوصف العبد الآدم للواحد المطلق وللأحد اللانهائي، لكل من تحقق بالله آدما وعبدا له، ظاهر اسمه، وكتاب عِلمه. هو {الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين}[٢١]، {ما جعلنا لبشر من قبلك الخلد}[٢٢].. جعله {كافة للناس}[٢٣]، {أول العابدين}[٢٤]، والحق منه للمتحققين.

كيف تنشد حق الله لمعناك، وأنت تحقر قيام الله في معناك، ساجدا لأسوار ما عرِفت ما وراءها، وما انقلبت لتكشف ما وراءك، وتزعم أن هذه هي المناسك السليمة، وأن هذه هي العبادة القويمة، وأن هذا هو التعبيد، وأن هذا هو التوحيد؟

إن الإنسان للإنسان قبلة معنوية لمنشود قيامه في أحدية الله، والإنسان للإنسان وطن لمنشود سَلامه، تتوحد لبناته بكلمة الله. فكيف تسجد الأحدية لأبعاضها لأحدهما؟ وكيف تتفتت الأحدية بذاتها بهما لمعنى الواحدية لصفاتها لصفاتهما؟ إن من في البيت ومن حول البيت قيام واحد لكلمة لله واحدة بآدم واحد بإنسان واحد لاسم لله الواحد.

إن تعبيد النفس للمعبود، إنما هو تهيئتها لتكون للمعبود قياما ووجها وبيتا وذكرا وسلاما، واسما وعَلما وإعلاما. ولله المثل في السموات والأرض.

فكيف تكون له كذلك، وأنت تبدأ بالكفر بمعيته لك، وقيومه عليك، وقيامه بك.. تبدأ بالنكران لك بذلك.. تبدأ بالبهتان لأمره بك.. تبدأ بالنسيان لأمرك به.. تبدأ بالمخالفة لفطرته لفطرتك.. تبدأ بالمعاندة لصبغته لصبغتك...

لا تريد أن تغير ما بنفسك من ظلامها، وقد طلب إليك أن تغير ما بنفسك؟ وهل معنى أن تغير ما بنفسك إلى ما بنفس مختارك لمثالك للمثل الأعلى لمعبودك، ومحبوبك، القيام في مسرحية قوالب؟

هل تعبيد نفسك له، ليكونك فتكونه فيه، ظلا له بمعانيه ومغانيه، في أن تنحني أمامه، أو تسجد أمام ظاهر قيامه أو قعدته أو نصبه، دون أن يكون لك نظر إلى ما في قلبه، ليكون قوام ما في قلبك، فتلقاه وتعرفه وتنظره من داخلك في داخلك بقلبك وفي قلبك؟

إن عرفته قالبا لقالب احتجب بقلبه على قلبك وعاملك بحقي فتنته. وإن عرفته قلبا لقلب احتجب عن قالبك بقالبه، وعاملك بنور هدايته.

ما هذا الفهم العقيم! ما هذا العنت المليم! ما هذا الجهل! ما هذا الظلام! ما هذا الفجور! ما هذا الانحراف بالأمور! إنك إنما تعبد نفسك للقائم على نفسك، للأقرب إليك من حبل الوريد يوم ترى وجه المعبود عندك في رائد لك مخالل منك بامتثال أمره إليك، في الاستماع لجهره، بالإنصات لسره، في ضميرك وسرك، في الشعور بالحب والتحاب، في الرضاء عما يريد بك، وعما يريد لك، وعما يريد منك.

اكشف عن نفسك لك، ألا تريد أن تسجد اليوم ليسجد لك في غد؟ فأين هي لا إله إلا الله؟ وأين هو الحق؟ وأين هو الواقع بمعنى الحق؟ إن كل ما هو قائم في الوجود، ما قام فيه، إلا لأن الوجود أراده كذلك، وما كان الوجود في ذلك وكذلك، إلا الله الذي تجادل فيه، ولا وعي لك عنه، ولا فهم لك فيه، ولا صدق منك معه، ولا علم لك به.

ما كانت المناسك في أي ملة، وفي أي دين، ومع أي نبي أو إمام، أو حكيم، حاملة لمعاني التعبيد للنفس لله، ولكنها كانت إشارة رمزية لمعان لما يقوم فيه الناس، بعضهم لبعض، بحق أو بباطل، بأمر مشكور، أو بأمر مجحود، ووسيلة عملية للتذكير بالعلاقة بين الذاكر والمذكور. إنها لون من المعاملة، وجزء من المعاملة التي هي أساس الدين (الصلاة عادة، والصوم جلادة، والدين المعاملة)[٢٥].

إن المعاملة القائمة بين الناس مع بعضهم البعض، إنما تعبر عن حقائق قائمة في الوجود، وظاهرة للشهود، إذا لَحِق لطيف الله الأبصار فأبصرت، أبصرت أن ما تشهد عين ما تتواجد، فانعكست البصائر في البصيرة فيما تشهد، وانعكست البصيرة في البصائر فيما تقوم، فقام الإنسان بين قلبه وقالبه، أزواجا خلق، وأزواجا بدأ، وأزواجا ينتهي، وأزواجا يتحقق، وأزواجا يتواجد، ويتخلق.

يتخلق بمحصلة ما تعامل به مع الناس، في معاملة قديمه لقائمه، وتواجد قادمه بقائمه، وبَعث الأقدم له في الأحدث منه في دورة الحياة له، {ذرية [طيبة] بعضها من بعض}[٢٦]، {وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم}[٢٧]، (من صلح أصلحنا له من صلح من آبائه وأزواجه وذرياته)[٢٨].

يكون للإنسان ذلك، يوم يعرف كيف هو. بين القلب والقالب يتوحد، أحدية إنسان، وقيامة عنوان، فيتكاثر روحا، بذكر الله يتجدد، بظلالٍ لها من نور المذكر تتعدد. ثم هو يمشي بها في أشباح لها من الناس، لمعيته لهم ظلالا، للذكر يتجمع، وعلى أصله لمعناه يتوحد. فيقوم اسما وعلما على الواحد الأحد، في فردوس نفسه لذاته ومعناه، كلمة لله، الفرد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن به له فيه كفوا أحد.

فإذا قام محمدا رسول الله، وشهد به الله أكبر، علم أنه على ما هو، لا نهاية له، سيرا فيمن لا نهاية له، وأنه على ما هو متعدد كوثر متكاثر بمعناه لمعناه لمعاني خلوده لوجوده بتواجده يختفي بدؤه حتى لا بدء له يعرف، وتتخلق به آزاله لحقائقه حتى لا أزل له يدرك، وتتواجد منه آباده لخلقه حتى لا أبد له.

فيعرف أن الله، وإن كان قوام قيامه بلا إله إلا الله، وحقيقة علمه باسمه رسول الله، لوجوده وقيامه ومعناه، فما زال هو فيه، هو الحق منه، وموصوف العبد له.

بذلك كان لا نهائي الله عنده، هو ما قبله مما لا يعلم، وهو ما بعده مما لا يحيط ولا يدرك، ولا يعلم. أحاط بذلك من أحاط به، بما أحاط به من العلم عنه، بقيامه بمجهوله له، بمجهول أناه لله في القيام عليه. (ما عرفني غير ربي)[٢٩]، فما عرفتني بعد، به كان محيطا بكتاب قيامه لمعاني أناه وجها وحقا وعبدا لمن دعاه بمولاه. {قُل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون}[٣٠]، {هل تعلم له سميا}[٣١].

إن العبد والمعبود، إنما هو هو في اسمه ومعناه يوم هو في قيامه (اللا هو)، يوم تتابع حكمته عاطفته، فيسجد العقل للقلب، بيتا للرب، ويوم تتابع عاطفته حكمته وإدراكه ووعيه، فيسجد القلب للرأس

والعقل معنى ووصفا للرب، ثم يسمو بعقله، ويرتقي بحسه وعاطفته وقلبه، فيتوحدا لا فرق بينهما للأعلى لأحديتهما عليهما روحا وحياة لهما فيتواجدا، لربهما، وأمرهما، فلا عقل ولا قلب، ولا قلب ولا عقل، ولا قلب ولا قالب، ولا قالب ولا قلب، ولا مادة بكثيف، ولا فناءً إلى معاني اللطيف، ولكنه الحق والمعنى، ولكنه القيام الإنساني الذي يعنى، ولكنه اسم الله وكفى، وعبادا شرفوا بما اصطفى، أو كرموا بما وفى.

هم في موصوف صفات أحديتهم بمعانيهم بين آب، إلى غيب بجمعه من خلق أو آب إلى الشهادة من الغيب بجمع من حقائق، أو بين أب في شهادة أو أب في الغيب، هم بين موجود وما أوجد، في قيام بوالد وما وَلد، في سلام وإسلام، سلام الأب لبنيه، وإسلام الابن لوالديه، في لا إله إلا الله، في واقع الفطرة، في واقع الحياة. {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم}[٣٢]، فمن يكون من هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ من يكون؟!! وأنفسهم ما تكون؟

{وأنت حل بهذا البلد، ووالد وما ولد}[٣٣].

أنت البلد لعالمك، لدارك مظهر، أنت الوالد، أنت الولد منك لك جوهر.. أنت الإنسان قبل الوالد، وأنت العنوان بعد الولد.. أنت الحق، ممن يسمونه ولا يعرفونه.. أنت تعرفه وأنت تقومه وتشرفه.

أنت كلمة الله.. أنت روح قدس الله.. أنت قائم الله الحي، أنت قيوم الله القائم على كل نفس آمنت بك وبالله معك.. أنت اسم الله وعلمه لعالمه بك.. أنت كتاب الله لقارئه، وجماع كلمه لعاشقه.

أنت الدين كله، يوم أظهرك ربك على الدين كله، ظاهرا من ربه بالدين كله، في الله ذي المعارج، في الله أكبر، في اللانهائي باللانهائي لمعناه، للانهائي معناك، في لانهائي مرتقاك.

فكيف يكون الرسول منك برضائه، وأنت لا ترتضي أن تكون منه برضائك، وتصمم على أن يكون غيرك، فتسجد لغيرك، بوهم الطلب لمعناه؟ وهو ما سجد لمولاه على ما تسجد، فما كان سجوده لمولاه، إلا طاعته على ما أمر {استقم كما أمرت}[٣٤]، {قل الله، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون}[٣٥]، {وقل جاء الحق، وزهق الباطل}[٣٦] {فلنولينك قبلة ترضاها}[٣٧]، فأشهر الأمر بقوله (القلب بيت الرب)[٣٨]. قل بعثت بالحق، فلا خلق ولا باطل لي، لأني خرجت عن معدومي إلى قائم قيومي، فلن أُعدَم بعد اليوم وقد توفيت نفسي، ولن أحرم منه قياما في حاضر حضرته بإنسانه بعد هذا القيام، وقد بُعثت بحقي أناي في مؤمني القوم، وأعطيت الكوثر لحقي نفسي بدائم بيتي بعترتي مني ومن المؤمنين بالله معي، لا إله إلا هو إليه المصير. (إذا كنت بين يديه علمني كلاما أخاطبه به)[٣٩]، (إذا كانت

القيامة انقطع كل نسب وحسب وسبب وصهر إلا نسبي وحسبي وسببي وصهري)[٤٠]، (أنا هو الحق والطريق والقيامة والحياة)[٤١]. (أنا هو روح القدس)[٤٢].

بهذا جاء دين الإسلام أو دين الفطرة، أو دين القيام، أو دين القيمة، أو دين الوجود على ما هو الوجود، أو دين الموجود بكل مشهود، وبذلك زُحزح الإنباء عن مكانته من الأولية إلى المرتبة التالية للعبودية (عُلماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل)[٤٣] لقيام الحق في المعاينة والشهود، في معنى الحياة والوجود، لمن يخرج من العدم إلى الحياة، مستقبلا نور الحياة، ممن جعل الله له نورا يمشي به في الناس، ليكونوا بمعناه ظلالا للحق، بقيوم معناه لقائم معانيهم، ذكرا محدثا لذكر قديم.

وما كان عصر الرسول في هذا كله بدعا من الخلق، متميزا فيه عن سائر عصور الأنبياء والأولياء والحكماء والعباد.. ولكنه كان مثالا إنسانيا للاحقيه من بشرية الأرض ليكونوا في متابعة له، ولسابقيه على ظهوره، قياما به، لمناصرتهم له فيه واجتماعا عليه به استكمالا لصفات الكمال الإنساني لهم وذلك في دائرة رسالته للأبيض والأحمر بأزمانها إلى أزل، وعوالمها وأكوانها في جميع ألوانها إلى أبد، حقا من حقائق وعَبدا من عباد، وإنسانا راشدا من إنسانية الرشاد.

على هذا قام الإسلام، ورضيه الله دينا لسائر الأنام من كل الأمم وفي كل مكان، يتجدد ويقوم، كلما أسلم مسلم، على ما رسم دين الإسلام بالوعي الفطري والكشف الروحي، وكلما تجددت معالم الإسلام في معلوم قائم به من إنسان، لا عوج له.

أما أن يزعم القائمون باسم الإسلام أنهم المسلمون، وهم لكلم الله بالإسلام محرفون، وعن هدي الله ملتوون، فهذا هو البهتان المبين وطريق الضالين المضلين. والله بينهم برسوله بعباد الرحمن لا ينقطعون، والله معهم وفي أنفسهم أقرب إليهم من حبل الوريد وما يدركون، وهم له معهم مباعدون، وعليه منكرون، وله جاحدون، وهو من ورائهم بإحاطته قائم قيامهم، وقيوم قائمهم، بلا إله إلا الله، عماد الدين.

إنهم يوم يشهدونها ليشهدوهم بها، فيرونهم بلا إله إلا الله كافرين فهم الخاسرون. أما المؤمنون، فيوم تكشف عنهم أغطيتهم، بكشفها يسعدون، إذ ينفخ في أسوار مادتهم من قيامهم، فيجتمع قيوم إرادة الحق بهم مصطفين، على روحه فيهم بقديمه لقيامهم وقيومه لجمعهم، ليكونوا أقباس نوره، بأرواح قيامهم لمعاني الحياة فيهم مغفورين، وعن أوزار مادتهم متخلين فيتحد قديمهم بمعاني الأقدم لهم، بجديدهم وقادمهم، قياما بوحدانية الله لقائمهم، على ما عرفها واجتمعها مثلهم الأعلى لله رسولا له بناموس الله

في وجوده بقيام القديم بالقادم في القائم، ويوم يستقبلها حقا له الجديد القادم، من القديم المتكنز في القائم المتحقق.

فكان في هذا ساعة الإنسان بالحق والرضاء وتحقيق الاصطفاء. وفيها خلاصه من ساعته برد الأعمال بالجزاء وفيها تعاسته. وبذلك قامت أقانيم الإسلام من الآب للقديم والأب للقائم والابن الولود للقادم في أحدية الوحدانية للإنسان، مَثَّلها وقامها وعنونها الأمر الوسط من حاضر الإنسان، بوصف الحق المبعوث، في إناء الخلق الزاهق، لحقي العبد الخالد {عَلِمت نفس ما قدمت وأخرت}[٤٤].

هذه هي لا إله إلا الله، وهذا هو الإسلام، فلا تزعموا لأنفسكم من وضع أوهامكم، أمورا تتابعونها بوهم الاستقامة، وأنتم في مسلكها في طريق الندامة. فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولو شاء الله ما فعلوه ولكنها فتنته، للذين يزعمون الإيمان بهديه ورسالته.

أشهد أنه لا إله إلا الله، أشهده فيمن صلح من الناس الحق من الله ومن رسول الله، وفيمن لم يصلح بعد من الناس، الله عليهم حفيظ، آدم الخلق في معنى أديمه وخلقه مقاما بحكمته، وبألوانه لأثوابه، ودثره لصفاته، بكوثره لقيامه، في غفلة عن أحديته في واحديته، بكتابه لعلمه، وبتعاليمه لطريقه إلى غايته، من حقي معناه بموقوت خلقيته، لمواصلة رسالته، وبيان حقيته (لحمتي مني وإن نتنت والعرق مني وإن مال)[٤٥]، (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)[٤٦]، (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)[٤٧].

لا إله إلا الله، محمد رسول الله

أسال الله أن يلهم قلوبنا الإصغاء، وأن يوفق نفوسنا لتلبية النداء، وأن ينير عقولنا لاستقبال العطاء، وأن يُقوِّم جوارحنا للاستقامة على أمره إلينا، حتى لا نفرط في أمره بنا لنا.

أسأل الله أن يؤلف بين قلوبنا، حتى نتوحد، وحتى ندرك الواحدية، وحتى نحقق الأحدية، وحتى نتحرك من أرض البلاء، ونزحزح إلى أراضي العطاء.

أسأل الله أن يلهمنا التوفيق، وأن يمن علينا بالتحقيق، وأن يسترنا عنا بأنفسنا مفرطين، حتى لا يطبعنا بطابع المبلسين فنكون من الطاغين.

نسأل الله راجين، وإليه مفتقرين، وعوالم أنفسنا له رادين، ولها له معبدين، ولتشريفه بلطيفه طالبين، حتى نكون أسماءً وأعلاما للمعلوم، ربا للعالمين، ببسم الله الرحمن الرحيم، في قائم، وقيوم خاتم وطابع وفطرة وصبغة المرسلين، والأئمة الهادين، والعلماء العاملين، والأولياء المكلفين، وعباد الرحمن المسخرين لخدمة العالمين.

هو كتاب وإمام النبيين، وقيوم وقيام العابدين، ونور وروح المحققين، العابد لمعبوده في العابدين، والقائم بقيومه في القائمين، الراكع الساجد في الساجدين، وهو المسجود له في العالمين، وهو ذو القعدة في العارفين، وهو ذو الحجة للواصلين، وهو الذي ينتهي إليه أمر كل دين بالإحسان من المتدينين.

إنه وجه الغيب، وخليفة الشهادة للمؤمنين، وقيام الحي القيوم للأحياء العارجين، يقوم ويتقلب في الساجدين، ويُنصّب قبلة للطائفين، وبيتا للعاكفين، وما الساجد في السجود عنده، إلا العارفون للأمر فيهم بالأمر فيه، وبالحق فيهم للحق فيه، وبالحياة فيهم للحياة فيه، فهم متابعيه إلى لانهائي معارجه، وإلى لانهائي معانيه.

هذا هو الإسلام دين الفطرة، ففيمَ تكون النبوة بعد إنسان هذا العلم، وبعد تعاريف وهدي وتعاليم جامع الكلم؟ إنه رسول الله الذي يبقى معكم إلى يوم القيامة على ما عَرَّف كلمة إعلامه ومقدمة قيامه، عيسى بن مريم إنسان الرجاء لنفسه نتوفى كلمة الله من الإنسان المعبود العابد لربه، القائم بغيوب الله شهادة بها جماع كلماته وحضرة ذاته. فكان عيسى عليه السلام عَلَم الرجاء، وعلم الأمل، ومقدمة القيام لتمام قيامه بآدم سلامه، الذي عرف من ربه فعلم، وتلقى من ربه فسلم، {عَسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا}[٤٨] يوم يبعثه ظاهرا بمقام كلمة الله لباطن لقائم لقيوم روح قدس الله، مصداقا لما سبق أن بشر به سبق قيامه، {إني متوفيك ورافعك إليَّ}[٤٩]، وما بشر به لأناه {ولسوف يعطيك ربك فترضى}[٥٠]، رافع الرتب صلى الله عليه وسلم.

هذا هو الإسلام، وهذا هو الدين، فلا تشوهوا هذا الدين، ولا تشوهوا هذا الإسلام بأمور بعيدة عن الإسلام، وبعيدة عن هذا الدين، بوهم إحساسكم أنكم موجهون، وأنكم لا تقدرون على مخالفة ما هو بكم قائم، والله يقول غيروا ما هو بكم قائم، {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}[٥١]، {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما}[٥٢].

ليس ما فيك مما هو بك قائم، كله من الحق، (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم)[٥٣]، فاعرف الشيطان فيك، قبل أن تعرف الله لك. إن الشيطان فيك، إنما هو قيوم قيامك، في قيامك بقالبك.

إن معنى الشيطان لا يستطيع أن يدخل إلى قلبك، إلا إذا أذنت أنت له، وقبلت أن يكون معنىً، للرب لك، ولكن هذا المعنى للشيطان، دون إرادتك، لا يستطيع أن يتقدم إلى قلبك قيد أنملة، فلا تظن أنك مقهور على أمرك، لا، {إن كيد الشيطان كان ضعيفا}[٥٤]، {وما كان لي عليكم من سلطان،

إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم}[٥٥]، {إني أخاف الله رب العالمين}[٥٦]، ذلك يوم تحاسبك نفسك، {فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم}[٥٧].

الله أقرب إليك من حبل الوريد ومعك أينما كنت. وما الشيطان الرجيم المستعاذ بالله منه، إلا أنت، فلا تجعله معنىً بعيدا عن قيامك. أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، {ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم}[٥٨] {.. فإذا هم مبلسون}[٥٩]. إنه قيامك، وإنه معانيك، فإن أردت أن تغير فغير بإرادتك وعقلك ما بك من إرادة لما تطلب لجسمانك إلى معقول لك فيما تعقل بفطرتك على ما بشرت وإليه هديت، والله معينك يوم تستعينه...

أما أنك تصف نفسك بالكمال، وتراك في الاستقامة، ثم تقول الفقير إليه تعالى ثم تطلب كمالا أو استكمالا، فأين هو الافتقار إليه تعالى، ما دمت تراك مستقيما؟ وأين هو الاعتزاز به والرجوع إليه، ما دمت تراك به عزيزا؟ إن الافتقار إلى الله والاعتزاز به أمر لا ينقضي شأنه، إن ذقت الافتقار إلى الله، أو ذقت سلام ورحمة الاعتزاز به. إن في الافتقار إلى الله سعادة لا تقدر، وفي الاعتزاز به سلام لا يضطرب.

وهو أمر خطير، لا تستطيع لغة الكلام أن تعبر عنه، ومقاييس الأمور والأشياء ليس فيها ما يستطيع أن يقدره أو يعبره. إن الإنسان اتسع لله وهو في طريقه إلى الله، اتسع لله وهو إلى الله بالله من الله في الله، في اللانهائي الذي لم تتسع له السماوات والأرض. فكيف يمكن تقدير الإنسان للإنسان، أو تقدير الإنسان لنفسه، يوم يصبح إنسانا، أو يوم يعقد العزم على أن يكون إنسانا؟ فليس الإنسان هو موهوم قيامه بدثاره من حاضره، بهيكله من مضغة القلب بأكنان الجسد.

إن طلب الإنسان ليكون إنسانا إنما هو أمر خطير، إن فيه الحقيقة، إنه القدرة.. إنه العزة.. إنه العلم.. إنه المعرفة.. إنه الكتاب.. إنه الحياة.. إنه الدين.. إنه الوجود.. إنه الحق.. إنه الطريق.

تقبلوا منا ما نقول، يتقبل الله منكم ما تفعلون، نحن لا نستطيع أن نُفعِّلكم، ولكنا نستطيع أن نقول لكم، وأنتم تستطيعون أن تنفعلوا وتفعلوا، فتقولوا فتعلموا. إن الله لا ينظر إلى أقوالكم، ولكنه ناظر إلى قلوبكم، وما يصدر من قلوبكم من عمل نتيجة إدراككم، واستقامة طواياكم، وصفاء نواياكم، فإذا صدق عملكم قام أثره محسوسا لكم في قيامكم فازددتم صدقا ويقينا واستقامة وكسبا وعملا.

نسأل الله أن يولي أمورنا خيارنا، وأن لا يولي أمورنا شرارنا بما كسبنا.

نسأل الله أن يأخذ بنواصينا إلى الخير.

نسأل الله أن ينزل سكينته على قلوبنا، والسلم والسلام على أرضنا.

نسأل الله أن يدفع عنا من البلاء ما نعلم، وما لا نعلم، وما هو به أعلم.

نسأل الله أن يجعلنا ممن قبل برحمته، وبجوده وبكرمه، وألا يجعلنا ممن عاملهم بعدله، وردَّ عليهم أعمالهم بجزائه.

لا إله إلا هو إليه المصير.

لا إله إلا الله محمد رسول الله.

أضواء على الطريق

(إنسان اليوم غيره إنسان الأمس، وإنسان الغد غيره إنسان اليوم). (برش)

مصادر التوثيق والتحقيق

١ حديث شريف ذات صلة أخرجه الطبراني في الجامع الصغير للسيوطي بنص: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً". كما أخرجه البيهقي في "شعب الإيمان.

٢ سورة الرعد - ١٧

٣ سورة إبراهيم - ٢٦

٤ حديث شريف: "المؤمنُ مرآةُ المؤمنِ، والمؤمنُ أخُو المؤمنِ يكُفَّ عليه ضيْعتَه، ويَحوطُه من ورائِه.". أخرجه البخاري وأبو داود، والبزار والطبراني

٥ حديث شريف: " رُبَّ أشعثَ أغبرَ ذي طِمرَينِ، مُصفَحٌ عن أبوابِ النَّاسِ، لو أقسمَ على اللهِ لأَبَرَّه.": أخرجه الطبراني في ((المعجم الأوسط)) بلفظه، وأصله في صحيح البخاري ومسلم بنحوه.

٦ سورة النحل - ١٢٨

٧ سورة التوبة - ١٠٣

٨ سورة الأحزاب - ٥٦

٩ حديث شريف. أخرجه أبو القاسم الشهرزوري في ((الأمالي)) كما في ((سلسلة الأحاديث الضعيفة)) للألباني.

١٠ حديث شريف: "ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وهي مسئولة عنه، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته". أخرجه البخاري ومسلم، وأبو داود، وأحمد، والترمذي:

١١ سورة الأحزاب - ٥٦

١٢ سورة النحل- ١٢٨

١٣ سورة الكهف - ٢٨

١٤ سورة الأحزاب - ٤٣

١٥ سورة التوبة - ١٠٣

١٦ سورة الأحزاب - ٥٦

١٧ سورة الذاريات - ٢١

١٨ سورة الحديد - ٢٨

١٩ سورة سبأ - ٤٩

٢٠ سورة آل عمران - ١٣٣

٢١ سورة الشعراء - ٢١٨-٢١٩

٢٢ سورة الأنبياء - ٣٤

٢٣ سورة سبأ - ٢٨.

٢٤ سورة الزخرف - ٨١

٢٥ من مقولة للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: "الصلاة عادة، والصوم جلادة، ومعاملة الناس هي العبادة."

٢٦ سورة آل عمران - ٣٤

٢٧ سورة النساء - ٩

٢٨ استلهاما من {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ.} سورة الرعد – ٢٣. و{رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.} سورة غافر - ٨

٢٩ حديث شريف ذكره بعض المتصوفة ومنهم الشيخ الكتاني بلفظ "ما عرفني حقيقة إلا ربي".

٣٠ سورة الأنعام - ٩١

٣١ سورة مريم - ٦٥

٣٢ سورة الأحزاب - ٦

٣٣ سورة البلد – ٢، ٣

٣٤ سورة الشورى - ١٥

٣٥ سورة الأنعام - ٩١

٣٦ سورة الإسراء - ٨١

٣٧ سورة البقرة - ١٤٤

٣٨ عبارة دارجة عند المتصوفة يذكرونها كحديث قدسي يتناغم مع الحديث القدسي (لم تسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن) الذي أخرجه أحمد بن حنبل في الزهد.

٣٩ عبارة للسيد رافع يمكن تأمل معناها ومغزاها في السياق.

٤٠ حديث شريف: "كلُّ نسَبٍ وصِهرٍ ينقطع يومَ القيامةِ إلا نسَبي وصِهْري". رواه الطبراني، والحاكم، والبيهقي، ورواه أحمد في مسنده، كما جاء أيضا بلفظ: "كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي." أخرجه ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)).

٤١ "قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي." (يو ١٤: ٦). أيضا: «أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا" (يو ١١: ٢٥)

٤٢ عبارة للسيد رافع يمكن تأمل معناها ومغزاها في السياق.

٤٣ حديث شريف يعتبره المحدثون أنه لا أصل له. لكن معناه صحيح ويوافق الحديث الشريف "إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر." أخرجه أبو داوود واللفظ له، والترمذي، وابن ماجه، وأحمد. والحديث الشريف: "إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها." أخرجه أبو داوود والحاكم.

٤٤ سورة الانفطار - ٥

٤٥ عبارة للسيد رافع يمكن تأمل معناها ومغزاها في السياق.

٤٦ حديث شريف. أخرجه البخاري ومسلم، وأبو داود، وأحمد، والترمذي: "ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وهي مسئولة عنه، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته".

٤٧ حديث شريف. أخرجه الترمذي في صحيحه، والدارمي

٤٨ سورة الإسراء - ٧٩

٤٩ سورة آل عمران - ٥٥

٥٠ سورة الضحى - ٥

٥١ سورة الرعد - ١١

٥٢ سورة النساء - ٦٥

٥٣ إشارة إلى الحديث الشريف: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم." أخرجه مسلم والبخاري. وكذلك: "فإن الشيطان يجري من أحدكم مجرى الدم، قلنا ومنك يا رسول الله؟ قال ومني، ولكن الله أعانني عليه فأسلم." أخرجه أحمد بلفظه، والترمذي والدارمي. باختلاف يسير.

٥٤ سورة النساء-٧٦

٥٥ سورة إبراهيم - ٢٢

٥٦ سورة الحشر - ١٦

٥٧ سورة النحل - ٩٨

٥٨ سورة يس - ٦٧

٥٩ سورة الأنعام – ٤٤